عِلْم اللاهوت الآبائي

دراسةِ اللاهوت المسيحي اليوم من الدراسات التي تحتاج إلى صلاة ومعرفة وتأمُّل ، فلا إيمان من غير معرفة ولا معرفة من غير إيمان ، وقد تبدو الثيولوچيا (اللاهوت) في دراستِها شائِكة وتَحِفّها بعض الصعوبات ، إلاَّ أنَّ الآباء علَّمونا أنَّ " اللاهوتي حقاً هو الذي يُصلي " ، لذلك نحتاج أن ندرس ونُصلي ، ونُصلي وندرس (صلي وأنتَ تعمل واعمل وأنتَ تُصلي) .

والاجابات على سؤال : " ما هو اللاهوت – الثيولوچيا ؟ " ، لاتزال في طريق النمو، إلاَّ أنَّ معنى اللاهوت أو الثيولوچيا كثيراً ما يبدو تقنياً ، مليئاً بالمُصطلحات الدقيقة التي تحتاج إلى شروحات وتبسيط !!!

ولأنَّ المكتبة العربية فقيرة ، إلى حدٍ ما ، في الكِتابات التي تبحث في هذا المجال ، لذا أُقدّم هذا الكتاب **" معنى الثيولوچيا - اللاهوت "** وهي مُحاولة لفحص معنى لفظِة " ثيولوچيا " في فِكْر آباء الكنيسة الأولى ، والغاية منه أن يكون مُقدمة لكتابات أخرى نحتاجها ونتطلع إليها وسط التحديات الإيمانية والأيديولوچيات المُعاصِرة ... حقيقة أنَّ تيارات فِكرية كثيرة ، تُلزمنا لنرجع إلى الينابيع الآبائية الأولى غير الغاشة ، وإلى عذوبة الخبرة المسيحية الأولى ، تلك الخبرة التي تنبني على محبّة الصَّلاح ، وروح الصَّلاة والحُب والذبائح والنُسك وجمال العِشق الإلهي .

لقد تناولت في هذا البحث فحص مبدئي يغوص في المعنى والمفهوم الآبائي لِلفظِة" ثيولوچيا " ، وهو لا يُشكِّل فحصاً شامِلاً وكامِلاً ، لأنه يتناول فقط بعض الآباء كنماذِج مُختارة ، ونأمل أن يُقدِم العمل فكرة واضحة وكافية عن اسلوب الكنيسة الأولى الواحِدة الوحيدة ، وحواراتِها عن " الثيولوچيا " .

إنَّنا لا نُؤمِن بإله جامِد إستاتيكي فرد صمد ، ولكننا نُؤمِن بالثَّالوث القدوس المُمجد ، وليس هناك معرفة من غير علاقة صميمية وشَرِكَة عميقة مع الثَّالوث المُحيي ، لذلك لن يستفاد من هذه الدراسة البحثية المنهجية ما لم تكن سبب بركة لحياتنا جميعاً ، فالرب نور للذينَ يعرفونه يُهدي الوُدعاء في الطريق .

إنَّ دراسِة اللاهوت تحتاج إلى توبة مُستمرة دِيناميكية تُوجِّه الفِكر ليعود من الحلُولي والأرضي والمادِّي إلى ما هو طبيعي وسامي وسماوي ، لذلك نحتاج إلى تقديس الحواس والسلوك بلا عثرة ، وما الأرثوذُكسية إلاَّ استقامة التعليم واستقامِة الحياة أيضاً .

وثِمة أمر هام أُحب أن أُشير إليه ، أنه بالرغم من الاتجاه الدراسي البحثي والأكاديمي لهذا الكتاب إلاَّ أنه ، أولاً وقبل كل شئ وفوقَ كل شئ ، دعوة حياتية لخبرِة حياة نعيش فيها إيماننا الأقدس وعقيدتنا في شخص المسيح ، فنرى النور اللامخلوق ، وعندئذٍ نُعطي المجد لله الذي أحبَّنا وبذل ذاته من أجلِنا ، فنُواظِب على التَّسبيح والتَّمجيد **(الذُّكصولوچيا)** الذي لا يشيخ بل يتجدَّد في أعماقنا ، مُسبِحين الرب الذي يليق به التَّسبيح ، الذي كلَّنا بفرحِة الطِيب الغامِر وعمله الخلاصي العجيب الذي اقتنى به الكنيسة بالدم الكريم الذي لمسيحه .

وليست دِراسة منهجية اللاهوت بالدراسة الجافة أو العقيمة ، نحدو فيها إلى العقلانية ، بل هي اتحاد بالله وتجاوُب بين إرادتنا الشخصية وعمل النعمة الإلهي (السينرچي) ، كقاعدة وأساس إيمان الكنيسة ، لأنَّ اللاهوت نعمة .... (نعمة الثَّالوث) ، وهو تلمذة غالية ونفيسة ، نتلامس فيها مع لاهوت الله وقُوَّته ومجده وعمله الخلاصي وغُفرانه العجيب .

ولن تُعرف " الثيولوچيا " بالدراسة بل " بالعِبادة " ، والمُواظبة على ترديد الاسم الحَسَنْ اسم المسيح الاسم الحُلو المملوء بركة والمملوء مجداً وخلاصاً ، الذي كل من يدعو به ينجو ، ليتَ الله يكشِف عن عُيوننا لِنُدقِق في حياتنا ونتسربل بثِياب اللاهوت أي المسيح أحشاء الرَّحمة والصَّلاح والاتضاع ، الرَّاعي والفادي والرب المُخلِص الذي ليس بأحد غيرهِ الخلاص .

إنَّ اللاهوت أساس الكِرازة ، وجوهر خدمِة التعليم الكنسي ، وسِر التَّسبيح وركيزة التربية الليتورچية ودُعامِة الحياة النُّسكية ، ومن خلال الفِكر التقي المُستقيم الغير مغشوش نُؤمن ونعرف ونحيا ونتأمل لاهوتياً ونعبُد بكل طاقاتنا واشتياقاتنا ، التي هي هِبة الله للإنسان في المسيح يسوع ، ومن ثمَّ في الكنيسة التي هي جسده مُستودع النعمة ، التي لا خلاص لأحد خارجها .

وعِلم اللاهوت الآبائي Partristic Theology لا يبحث عن إثبات وجود الله وطبيعته وسِماته وأعماله بطريقة مجردة وإنما كحياة بها ومعها وفيها نعيش ، لهذا يتسع عِلم اللاهوت ليحمِل بين طياته كل ما يمِس الحياة الداخلية والخارجية ، كشف لنا عنها الآباء كمفهومات وصِيَغ تعليمية ، بل كخِبرة مسيحية حيَّة وعامِلة في حياة الكنيسة ، وكحقائِق خلاصية واقعية ومُعاشة يُعلِنها الروح القدس الرب المُحيي .

لقد فرَّق الآباء بين معرفِة العقل ومعرفِة الذهن الروحي ، الأولى تستخدِم المنطِق والجَدَل والتحليل العقلاني ، والثانية رؤية روحية صافية استنارة واستعلان ، فالذهن مقره القلب ، أمَّا الفِكر فمكانه العقل (الدِماغ) ، وفي هذا لا ياغي الآباء

مَلَكِة التفكير المنطقي للذهن ، ولكنه يعني معرِفِة حدود العقل ، لذلك حرص الآباء على أن لا يتركوا العنان للعقل والآراء الذَّاتية ، لأنَّ معرِفِة الله هِبَة روحيَّة ومعرفة حيَّة ، معرِفِة محبَّة وشَرِكَة وتقديس ، فلا فرق بين طريق المحبَّة وطريق المعرفة ، لأنَّ المعرفة الحقيقية تُقترن بالمحبَّة والإفراز الواعي والصلاة القلبية الدائِمة وترديد اسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح .

إنَّ القلب هو الذي يصنع اللاهوتي Pectus Thologum Faci ، فمعرِفتنا لله لا تجعل منا فلاسِفة وعُلماء بل تجعلنا قديسين نظير القدوس الذي دعانا سالكين في طريق الكمال كما أنَّ أبانا السماوي هو كامِل ، والمعرفة اللاهوتية السِّرّية على النقيض من كل معرفة بشرية تأتي من عقل الإنسان ، لذلك اللاهوتي الحقيقي هو من له شَرِكَة مع الله ، وكما أنَّ دراسِة اللاهوت تُحسب معرفة ، هي أيضاً إيمان وحياة وتقديس وبذل وانسكاب ونُسك وتسبيح وشهادة وشَرِكَة وخدمة دياكونية ، فيا لِغِنَى معرِفِة الله تلك الهِبَة الروحية هِبَة الشَرِكَة مع الثالوث القدوس ، ومع السمائيين ، ومع المؤمنين .

والآن – عزيزي القارئ – أحب أن أجذِب انتباهك إلى المدينة العُظمى المحبَّة للمسيح ، أصل الكرازة وبيت العِلْم ومركز الحياة الفِكرية المُتألِقة الحيَّة ، حيث واجه آباء مدرسِة الأسكندرية اللاهوتية خليطاً من الفلسفات كان عليهم أن يُجابهوه بذات الأسلوب ، فصارت الأسكندرية عقل المسيحية وأوّل كرسي للتعليم المسيحي ، بل قُل أنها قلب المسيحية النابِض ، تحمِل سِمة الحياة والمعرِفة ، حيث التعدُّد والتنوُّع ، الذي جعلها تقِف أمام العالم كله كنيسة مُشرقة حكيمة غنية قوية مُرهبة كجيش بألوية ، إذ وقفت أمام العالم كابنة الملِك المُلتحِفة بثياب مزركشة ، لتصير الكنيسة كل شئ مع كل أحد ، تلمس أوتار كثيرة لقلوب كثيرة ، كنيسة إكليمنضُس السكندري والعلاَّمة أوريجانوس والقديس ديديموس الضَّرير المُبصِر ، والعظيم البابا أثناسيوس الرسولي حامي الإيمان ، والبابا كيرلُس عمود الدين وسِرَاج الأرثوذُكسية ، والبابا ديسقورس بطل وفخر الأرثوذُكسية .

وشُكراً لله لأنه كما كان هكذا يكون من جيل وإلى جيل ، تبقى كنيستنا دوماً مُعلِمة للمسكونة وخزانة للتقليد الرسولي وأداة لحِفْظ التعليم الصحيح ، كنيسِة عِلم ولاهوت ، حيث كرسي الأسكندرية مهد اللاهوت المسيحي

القمص اثناسيوس فهمى جورج

22 سبتمبر 2009

للدراسات الآبائية
http:www.ixoyc.net
frathanasius.george@ixoyc.net